من هنا خفتها واصطناعيتها . هذه المحاكمة حين تصل الى الاقصوصة التي يعتبرها التعبير عن مرحلة جديدة حين تحل وجهة النظر البرجوازية الصغيرة مكان وجهة النظر البرجوازية ، ولكن الكاتب في غمرة نقده الاقصوصة العربية لا يعطينا التفسير لخلو الاقصوصة العربية من هاجس الخلق .

حين يقوم العروي بعملية نقد اشكال التعبير الادبية ، فانه يقوم بنقده بسرعة فائقة . فمقدماته النظرية ، بحاجة الى اثبات في الواقع ، ولا يكفي العرض السريع لاعمال الحكيم ومحفوظ في اعطائنا صورة شاملة عن الواقع الذي تتم عملية نقده . فالحركة الادبية العربية داخل الدولة القومية ، محكومة بالطابع الايديولوجي لهذه الدولة . من هنا فان اشكال التعبير الادبي تتقولب ضمن قوالب جاهزة لا يسمح لها باعادة خلق نفسها . انها داخل المثقفين صغار البرجوازيين . والخروج من هذه الدائرة لا يقتضيه التأكيد على الطابع البرجوازي للرواية فقط بقدر ما يقتضي تلمس طموحات الطبقات الثورية وخروج هذه الطموحات الى دائرة الضوء التعبيري في الادب . فالتعبير الادبي العربي قاصر ليس بذاته بل بوصفه تعبيرا عن واقع راكد وقاصر . هذه الدائرة كيف يتم الخروج منها . وهل من سبيل الى هذا الخروج ؟ لست أدري بالضبط لماذا أهمل العروي الشعر . ففي رأيي ان الشعر في المشرق العربي على الاقل ، شكل المحور لكل انواع التعبير الادبية ، وحمل عبر تمرده المستمر احلام المثقف البرجوازي الصغير الى حيز التطبيق . فالعنصر الدرامي الذي نفتقده في المسرح والشخصية المتعددة الابعاد التي تفتقدها الرواية والبحث الذي تفتقده الاقصوصة ، هذه العناصر الثلاثة تعود لتتجمع في الشكل التعبيري الشعري . لكن هذا الشكل لا تتكشف ابعاده مجانا ، انه تعبير عن البنية الاجتماعية نفسها وعن الايديولوجية نفسها. لكن الشعر يسمح للاطراف ان تكتشف نفسها عبر لغته بشكل اكثر طواعية واكثر بطولة تمردية .

هكذا نخرج من قراءة هذا الفصل يائسين . فالعروي في بحثه عن الشكل الادبي الملائم لا يطرح حركة الصراع بوصفها مولدا لهذا الشكل ، لكنه ، حين يقوم بتحليل الفولكلور ، فانه يضعه من خلال العلاقة الكولونيالية وانعكاساتها المحلية في موضعه الصحيح ، فالفولكلور عنده يصبح ترفا تأنقا في ظلال المعاملة البرجوازية المدينية التي يلقاها . انه أفق مغلق . ماض لا نحياه ، بل يحياه السياح من خلالنا كلحظة في ماض لن يعود .

لان العروي محكوم بالمنطق الداخلي للدولة القومية فانه لا يكتشف ابعاد الحركة الجماهيرية . الدولة القومية تتساقط تحت ضربات الامبريالية . والخروج الظافر من هذه الدولة هو دخول ظافر في التاريخ والحضارة . وكون العروي يعتمد منهجا نقديا مثاليا ، فهو لا يستطيع اكتشاف العوامل البنيوية التاريخية ، التي تكون لحظة الفعل التاريخي . هذا العجز عن ايصال التحليل الى ارضه ، يظهر من خلال نقده لاشكال التعبير . فهي تبدو وكأنها باقية الى الابد بأشكالها الحالية . هذا يعود الى كونه لا يرى فيها لحظة انتقال الى مستويات أخرى، يبشر بها الارتداد الثوري — الذي يضرب عميقا في أرض الواقع — المتبلور في تبنين الطبقات داخل المجتمع العربي،ومن الدور المنتظر للطبقة العاملة في قيادة المرحلة الثورية.من هنا يجب أن يعود التحليل ليكتشف قدميه . أن يعود ليكتشف ان الطبقة العاملة تستطيع عبر قيادتها لحركة المجتمع العربي ان تحسم التناقض لمصلحتها . هذه القيادة لا ننظر نحن اليها بشكل دوغماتي . انها قيادة تتولد من الرحم نفسه الذي يحدثنا عنه العروي بجدارة فائقة . تتولد من رحم العلاقة الصراعية مع الغرب . وخروجها من هذا الرحم هو تغليب منطق جديد، منطق انتقادي وتاريخي في آن يستطيع ان يعلن القطيعة ويبدأ من جديد . لقد حاولنا ان نطرح بضعة اسئلة حول هذا الكتاب المهم . والاكيد لدينا ان هذا الكتاب قد حاول ولاول مرة في تاريخ الفكر العربي المعاصر ان يطرح مشاكل هذا الفكر بمثل هذا العمق والشمول . من هنا فشهادة العروي بحاجة الى الكثير من الدرس والتقييم .

الياس خوري